المسلمون .. الثقافة والتحديات المعاصرة

مع أن المسلمين اليوم يشكلون قرابة ربع سكان العالم وتقع أياديهم على ثروات طبيعية مهولة إلا أنهم يعانون حالة عجز عن مواكبة العصر في كثير من المناحي جعلتهم أسرى دائرة قصية ينتظرون ما يأتيهم من الأمم الأخرى ولا يمتلكون زمام القيادة والمبادرة..

محمد قطابش

قد يكون الوضع السياسي الذي يسيطر على أغلب أقطار العالم العربي والإسلامي أكبر المعيقات التي أنتجت على مر عقود طوال صنوف التراجع والتخلف وباستثناء النموذج التركي الذي عمق النضج السياسي الديمقراطي والحداثي بشكل مواز للتطور الاقتصادي الذي وضع تركيا في المرتبة الـ 17بين أكثر دول العالم تقدما في المجال الاقتصادي فإن أغلب العالم الإسلامي يعيش على وقع فساد الإدارة والافتقار للقرار الرشيد في ظل ثقافة متوارثة تعتمد الكبت والقهر داخل المجتمعات منذ مراحل الطفولة وفي سني التعليم الأساسية لتتلاحق الأجيال مع استمرار سريان هذه الثقافة..

تكتمل المفارقة المسلمون يشكلون اليوم نحو ربع سكان العالم يعيشون في بقاع شاسعة من الأرض يحوي بعضها ثروات طبيعية هائلة تشكل عصب الحياة والتطور للمدينة المعاصرة ومع ذلك ما زالوا إحدى الخلايا الميتة في حركة التطور الحضاري المعاصر.(١)

وللإجابة عن التساؤل المثير للجدل اليوم: المسلمون، ماذا يحتاجونه لمواجهة تحديات القرن الجديد؟ يؤكد جل الباحثين ودراسي فقه الواقع بأن إعادة صياغة الثقافة لدى المواطن العربي والمسلم حاكما ومحكوما هي الطريق الأمثل لاستعادة هذه الأمة مكانتها اللائقة كحضارة كان لها الدور الحيوي في تشكيل النواة التي أوصلت العالم إلى ما وصل إليه اليوم من تطور في القيم العلمية والسياسية وليس المعنى من إعادة صياغة الثقافة هنا أي تغييرها، لأن الثقافة العربية والإسلامية موجودة وراسخة وإنما المعنى إحياء هذه الثقافة مع مدخلها الجديد المفيد في أفئدة أجيال البشر التي تنتمي لهذه الأمة والعمل على تطبيقها في الواقع العملي..

يؤيد كثير من العلماء والباحثين وجود فهم خاطئ لدى كثرة من المسلمين اليوم عن الإسلام ونظامه إذ يعتقد هؤلاء أن النظام الإسلامي لا يجب أن يتقيد بأعمال الفكر في مستجدات العصر وهو مفهوم يكشف عن تحجر أصحاب هذه الرؤية وعدم إدراكهم حقيقة أن سبحانه وتعالى استخلف الإنسان في الأرض ومنحه فرص واسعة للاختيار وتكييف الواقع تبعا لاحتياجاته (٢)، ويبدو أن هذا الفهم الخاطئ أسهم في تكريس الصورة النمطية والمغلوطة عن المسلمين اليوم لدى العالم الغربي «لو سألنا اليوم الإنسان العادي في الغرب، وفي مواطن عدة أخرى ينبئنا بالصورة التي شكلها لديه المخيال الكوني عن الإسلام لأجاب: اضطهاد المرأة والعنف أو الإرهاب» (٣)، طبعا دون أن ننسى انغماس الدعاية الإعلامية الصهيونية المظللة في التآمر لتشويه صورة الإسلام الحقيقية، وفي المقابل عدم تمكن المسلمين من مواجهة هذا اللون من الدعاية ونقل الصورة الحقيقية للإسلام كدين يدعو للرقي الحضاري والمعرفي والقيم الأخلاقية قبل المادية التي تسمو بها الإنسانية.

أما كيف ينهض المسلمون اليوم، يورد بعض المفكرين المعاصرين معالجات لنهوض الأمة الإسلامية من الواقع الآني المتردي، في مقدمتها إنقاذ المجتمع المسلم لمطالب التحول عن منهج «قياس الغائب على الشاهد» والذهاب لمعطيات الواقع مباشرة، أعمال الاجتهاد في المستجد وبما لا يخالف أحكام الشريعة الإسلامية – والتوافق على مبدأ نبذ الصراع بين أتباع المذاهب سنة وشيعة لعل من مقومات الدولة المدنية الخلاص من التفتت »أرى عالمنا العربي يمر بمرحلة لافتة عصية على الفهم« تتمثل في السعي الحثيث للتقهقر إلى ألوان من التشظي الطائفي والقبلي والعرقي والديني في مقابل سعي العالم إلى التكتل والذوبان في كيانات كبرى تحاول أن تجد مشتركات ثقافية واقتصادية لتعايش قوميات متباينة متعددة .. التطور الهائل في وسائل الاتصال كشف الغطاء عن عالمنا العربي وفتح العيون والآذان على الحصار الذي تعيشه شعوبه ومدى تخلفه عما يعيشه العالم وما رسخته الأنظمة الحاكمة من قيم القبيلة والطائفة والمذهب (٤)، والأخذ لآليات مواكبة في مواجهة جديد العصر ومما يتوافق بالتمسك بالثابت في الإسلام والشريعة والعمل على اعتماد استراتيجية معرفية وثقافية بعيدة عن الكفر المتعصب والتوجه للغرب وللعالم بفعاليات علمية وثقافية وحضارية.

التكنولوجيا الرقمية والإبداع الرقمي

قال الدكتور مدحت الجيار، إن علوم الدنيا التى كتبت بـ26 حرفا اختصرتها التكنولوجيا الحديثة في رقمين وهما الصفر والواحد، قائلاً إن الصفر يمثل الزمان والواحد يمثل المكان أى لحظة الكتابة لحظة الاستقبال، لافتا إلى أنه قد يأتى اليوم لنكتب فيه على الهواء في أي زمان ومكان ويتم قراءة ما نكتب فى نفس اللحظة.

جاء ذلك خلال الجلسة الأولى من مؤتمر «النص الجديد» الذي اقامته دار أروقة للدراسات والنشر بالقاهرة بالتعاون مع المجلس الأعلى لثقافة وحضره كل من الدكتور السيد نجم ومدحت الجيار وعدد كبير من الشعراء العرب.

وأشار الجيار إلى أن الإبداع الرقمى خلق نوع جديد من النقاد لم نكن نتخيل وجوده بالساحة الادبية وهو المتلقى، مشيرا إلى أن تجربة الأدب الرقمى أصبحت محيرة ولم يتم التوصل فيها حتى الآن لمسمى المتلقى أم هو ناقد.

فيما أكد الناقد الدكتور السيد نجم، أن عالم الإبداع الرقمى لم يعد مثل ما كان عليه فى بداية ظهور فى أوربا فى الثمانينيات فيما يخص فكرة القرصنة، مشيرا إلى أن هذه الإشكالية تم التغلب عليها فى بداية الألفية الثالثة وسقطت كل المواقع والمدونات التى بادرت بسرقة بعض الأعمال الأدبية ونسبتها إليها.

وردا على من يقولون إن المبدع الرقمى يفتقد لروح الإبداع الأصيل، قال نجم إن الشاعر أو الروائى عندما يكتب إلكترونيا أو ورقيا فهو ملتزم بقواعد الكتابة الأساسية التى لا دخل لها بالكتابة الإلكترونية، مشيرا إلى أن الإبداع والفن يسبق النظر.

وذكر أن أبرز رواد هذا الإبداع الكاتب والروائى محمد سناجله الذى صدر له حتى الآن 3 أعمال عبر الإنترنت، وكذلك الكاتب عباس مشتاق معن، مشيرا إلى أنهم اعتمدوا على الصورة فى عرض نصوصهم الأدبية لأن الصورة أصبحت عامل مهم فى الكتابة الرقمية لأنها تختصر الكثير من الكلمات كما أنها تفسر الكثير من المعانى التى قد تبدو غامضة.

إصدارات ثقافية

رسائل إلى هيلين

كان لويس ألتوسير أحد أكبر فلاسفة القرن العشرين وهو أحد المعلمين الفكريين لأجيال من الفلاسفة والمثقفين. توفي عام ١٩٩٠ وكان قد قام عام ١٩٨٠ بـ«عمل جنوني حيث قتل زوجته هيلين خنقاً بيديه». حوكم وحُكم عليه بالسجن لسنوات طويلة لكن الرئيس الفرنسي الأسبق فرانسوا ميتران شمله بعفو رئاسي، نظراً لظروف «فعله» ومكانته الفكرية.

كتب مقدمة هذا العمل الفيلسوف الفرنسي المعاصر برنار هنري ليفي، الذي كان أحد طلبة ألتوسير، وهو يركز فيها على ما يسميه «حالة التمزق النفسي العميق» التي عاشها ألتوسير بين «التجريد على مستوى المفاهيم» و«حالة الفوضى الكبيرة التي كانت تسيطر على رأس الفيلسوف».

بكل الحالات لا شك أن هذه الرسائل تلقي الكثير من الأضواء حول شخصية أحد معلّمي الفكر في القرن العشرين وهي أيضاً «منجم من المعلومات» حول سيرته (تجدر الإشارة إلى أن ألتوسير كان قد نشر سيرته الفرنسية تحت عنوان «المستقبل يستمر طويلاً»).

كان لويس ألتوسير قد التقى بزوجته هيلين عندما كان لا يزال طالباً. وتنمّ رسائله لها عن حبّه العميق والصادق لها. لكن يبدو بوضوح فيها أيضاً أنه عانى «تدريجياً» من حالات من «الجموح العصبي».

هكذا يتحدث في الرسائل أيضاً عن نوع من «الميثاق الهش» الذي ساد في علاقاته الأسرية «المضطربة» بسبب «غرائز قاتلة» كانت تجتاحه. بالتالي بدت حياته «معلقة» بين حالات من العقل و«نوبات» من الهياج العصبي «الجنوني».

وإذا كانت «رسائل إلى هيلين» تحكي الكثير عن قصة الحب التي جمعت بين الفيلسوف وزوجته، فإنها تطرح أيضاً مسألة العلاقة بين «الجنون والعبقرية». كما تمثل تأريخاً فكرياً عميقاً للقرن الماضي، العشرين. ذلك عبر ما يذكره ألتوسير عن معاصريه من كتاب ومفكرين ليس أقلهم شأناً جاك لاكان وجاك ديريدا وجان بول سارتر وغيرهم. خاصة أولئك الذين كانوا مثله، طلبة في دار المعلمين العليا بباريس.

وفي مثل هذا السياق يتحدث ألتوسير عن «القطيعة» في فكر ماركس وعن «الممارسات النظرية» للمثقفين وعن «الأجهزة الإيديولوجية للدولة».

لكن هناك صورة أخرى «إنسانية» تبرز عن رسائل الفيلسوف حيث يكتب في إحداها ما مفاده: «الشمس مشرقة ووقتي موزع بين النوم وقراءة الصحف والحمّام، وحضور المسرح». ويحكي في أخرى عن تعلقه برياضات «كرة المضرب» و«سباق الدراجات» و«كرة القدم» التي نقرأ في بعض ما كتبه عنها: «سوف أحضر يوم الأحد مباراة بكرة القدم برفقة والدي، وذلك بقصد أن أثير حنقه عبر حديثي عن غباء طريقة لعب فريقه أولمبيك مرسيليا».

ويكتشف القارئ في هذه الرسائل اهتمام ألتوسير الكبير بالسينما التي يقول عنها، بعد مشاهدته لفيلم «سارق الدرّاجة»، إنها «تفرط في الهزل المجاني وفي الخفّة عندما تعالج مواضيع سياسية». لكنه يتحدث بالمقابل عن «الشخصيات الرائعة» في فيلم «الوهم الكبير» لرينوار.

وتحتوي «رسائل إلى هيلين» الكثير من آراء لويس ألتوسير حول الأحداث الكبرى التي عاصرها مثل أزمة وحرب السويس عام ١٩٥٦ وحرب التحرير الجزائرية ومواقف الجنرال ديغول منها. وأحاديث عن الأسفار التي قام بها. ويحكي أنه ذات صباح من شهر يونيو-حزيران ١٩٧١ رافق هيلين إلى محطة القطار حيث سافرت إلى إيطاليا. وقد كتب لها في رسالة بعد ثلاثة أيام من سفرها: «عند انطلاق القطار أحسست أنني بداخله وأحسست باهتزاز عجلاته الأولى (...) لقد وصلت برقيتك التي تعلميني بها أن كل شيء على ما يرام (...). أنتظر رسالتك. أقبلك بكل ما أملكه من حنان، وبلّغي تحيّاتي لكل ما نحبه في البندقية».

وفي رسالة تعود إلى عام ١٩٦١، وبعد أن يحكي لويس التوسير ما فعله خلال يومه يختم رسالته بالكلمات التالية: «لماذا أروي لك هذا كله؟ لسبب بسيط هو أني أحب أن أحكي لك أشياء كثيرة وأنني أحبك بعمق، نعم بعمق، وسوف أكون سعيدا عندما تكونين أنت في عطلة أيضا حيث سيكون بإمكاننا أن نلتقي كثيرا وطويلا».

وبعد إحدى المشاجرات «المتكررة» كتب لويس التوسير في رسالة تعود لعام ١٩٥٨ ما مفاده: «لقد شجبتك من أجل سوء تصرفك ومن أجل طريقة ارتداء ملابسك وقاطعتك في الحديث أمام أهلك (...) ووبختك من أجل صلصة السلطة التي قمت بتحضيرها»، ثم يختتم رسالته بالقول: «أتمنى أن نذهب معا للتنزّه في الغابة يوم الأحد. فهذا سيجلب لنا بعض الصفاء».

هذه الرسائل كلها كتبها لويس ألتوسير عندما كان في قمة مجده الفكري وكان أستاذاً في مدرسة المعلمين العليا التي كانت «تصوغ» الفلسفة الفرنسية الرسمية منذ عقود طويلة. وأيضاً في الفترة التي أوجد فيها، عبر مفهومه عن التاريخ وأنه «محاكمة من دون موضوع»، رابطة بين الماركسية والبنيوية.

وبعد الجريمة التي قام بها عندما قتل هيلين، لجأ إلى شقة صغيرة في شمال باريس، كان يخرج أحياناً إلى الشارع ليقول للمارة: «أنا ألتوسير العظيم».لقد كان عظيماً و«مهووساً»، هذا ما تقوله «رسائل إلى هيلين».

الكتاب: رسائل إلى هيلين
تأليف: لويس التوسير
الناشر: غراسيه
باريس ٢٠١١
الصفحات: ٧١٤ صفحة
القطع: المتوسط

«بيت المغترب»

صدرت الرواية الأولى للكاتب السوداني محمد السماني بعنوان «بيت المغترب» باللهجة العامية السودانية عن مؤسسة سندباد للنشر والإعلام بالقاهرة ، وجاءت الرواية في ٢٣٠ صفحة من القطع المتوسط، ولوحة الغلاف للفنان عبد الرحمن بكر.

الرواية تجسد حياة المغترب السوداني من حيث المعاناة وتقلباتها الكثيرة ما بين الفرح والحزن، وصراع الخير والشر، متناولاً الظروف التي فرضتها عليه حياة الاغتراب، وكيفية تعاطيه معها، ومع ما يحيط بها، ومعايشته للمتغيرات داخل الوطن وتفاعله معها، عندما يعود للوطن، في مسيرة تحتشد فيها الأحداث وتتقاطع مع معطيات الزمان والمكان، في سرد يوحى بالواقعية ويجعل شخصيات الرواية، شخصيات حقيقية تأخذك إلى عالمها لتعيش معها.

وترى من خلالها تفاصيل حياتهم عبر تصوير لمجريات الأمور وملابساتها، دون تدخل من الكاتب في فرض صور معينة، وإنما نقل للأفعال وردودها وانعكاساتها على الواقع الذي تعيشه هذه الشخصيات، وقد جاءت الرواية بلغة سودانية عامية معاصرة بدلالاتها وإيحاءاتها التي تجسد المعاني وترسم الصور في لوحة فنية، تبرز جمالها وقدرتها على إحداث التشويق وتحريك الدواخل.

وقد حفلت الرواية بالكثير من المشاهد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي حدثت في السودان خلال السنوات الأخيرة وإسقاطاتها على شخصيات الرواية.

عِنْدَ الرَّمَقِ الأَوَّلِ

عبدالله كمال محيي الدين

انفرط العقدُ أمامك سيِّدَتي ..
لا أدري هل كان المَنثورُ هو الدرُّ
أم أن المُلْقَى بضعُ محاراتٍ
لا تنبئ عن مكنون القلبْ.

أنتِ الآن معيْ
قد لا أتقنُ فنَ التَّنْجِيم وقراءَة كفِّ اللُّقْيَا
لكنِّي مُحْتَرِفٌ لقراءَة جَسَد اللحْظَة
أتَهَجَى كُلَّ تَفَاصيلِ اللَّحظَةِ بتأنٍ
وأُدَوِّنُ ملحوظات الإعْجَابِ
وبحنْكَةِ عَطَّارٍ يَسْتَهْوِيْنِي استنشاقُ المشْهَدْ .

انفرط العقدُ ..
أجَلْ
بَلْ ذابَ الشاعرُ وَجْدَاً
في جَسَدَ قَصَيْدَته النافرِ كالغَيْمَة
سأؤرخ في هذا الجسد المتوثب
سيرةَ مهضوم لمساءاتِ الحرمانْ.
سأكتبُ فيه وَدَاعَاً
للطُرُقَاتَ المَمْلُوءَة بالرهْبَةِ
منْ خَتْلِ الأُنْثَى .

انفرطَ العقدُ أمامَك سيِّدَتِي
فالتَقطي حَظَّك منْهُ،
خُذِي ما شئْت ...
دَعِي المُتَبَقِي لغد قدْ يُبْعِدُنَا عنَّا.
عَلَّمَتني القصيدةُ كيف تكون الأنثى
عند الرَّمَقِ الأولِ منْ يَقَظَتِهَا
كَالطُّوْفَان
تَتَمَيَّزُ شَغَفَاً باللُّقْيَا
وترحبُ بالقادمِ مِنْ رَحِمِ الحِرْمَانِ
وَحِيداً كاللَّحْظَةْ.
اللحظةَ ؟ لستَ وحيداً !
قالتْهَا فَاتِنَتِي!
يا هولَ اللُّقْيَا .. مَاذا يَحْدُثُ
إذ تَلْتَبِسُ الأشياء على العاشقِ
إلا شيءٌ يتفتقُ مثلَ الحظْ .

رماد النوافذ

عبدالله حمود الفقيه

إلهي :
خذني إليك ...
فها أنذا الآن وحدي ،
فخذني إليك ..
لن يرى أحدٌ
حين أرقى ..
وأرقى ..
وأرقى ...
وأصبح بين يديك .

فخذني إلهي ..
إلى عَالَم غير هذا
الذي يكرِّه الصدق
يحتقر الأنبياء ...
إلى عَالَم ..
ليس فيه إله سواك
ليس فيه إله
يمزّق أفئدة الشعراء
ليغرسها بالرياح ..
وينثر فوق رؤوس الجياع
بقايا الرماد.
إلى عَالَم غير هذا ..
الذي لم يَعُدْ فيه غير البياض .
حين غنى المغني ،
تساقط ثلجٌ كثيف وغطى مدينتنا ..
كلّ ألوانها هاجرتْ
لم يعد في المدينة إلا السوادْ .
صائمة ...
جميع النوافذ عن نسمات الصباح
عن عبق الفلِّ والياسمين .
كلُّ الحدائق نائمة في المقابر ..
والمآذن مشغولة باغتيال العصافيرْ .

يا سيدي :
إنَّ المواويلَ كاذبة في مدينتنا ..
تسرق ضوءَ النجوم الفراشاتُ ..
التماثيلُ تسكن أحلامَنا ..
تكتب أشعارنا الأمنيات العجاف
وتكتبنا صفرة الاحتراق
فخذني إلهي إليك
خذني إليكْ.